**لبنان القوي - القادة التاريخيون - والمقارنة المستحيلة**

* [سلمان عبد الخالق](https://newspaper.annahar.com/author/24577-%D8%B3%D9%84%D9%85%D8%A7%D9%86-%D8%B9%D8%A8%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AE%D8%A7%D9%84%D9%82)

 جريدة النهار

* 13 كانون الأول 2019 | 02:55

في العاشر من تشرين الأول، حلت الذكرى السابعة والثلاثون لوفاة رجل كان في حياته ظاهرة مميزة، هو المرحوم الشيخ عارف يحيى، الذي قلّما يعرف عنه سياسيو هذا الزمن ورجاله، والذي سطّر في حياته القصيرة صفحات ناصعة في الصدق والإخلاص، وكان له من ذكائه الفطري الحاد، واندفاع عفوي للخدمة العامة، قلما يتساوى فيه مع أحد، جواز مرور إلى عقول وقلوب الكبار في ميادين السياسة والاقتصاد والنشاط الاجتماعي والإنساني.

إلى مدرسة في الوفاء والالتزام، من العلاقة التاريخية بين المرحوم والده الشيخ حسن عبدالله يحيى، مع المختارة وسيّدها آنذاك الشهيد المعلم كمال جنبلاط، بكل ما مثّلته لشخصه الشاب من ولاء سياسي، اجتماعي، ورثه بعبقه وطيبه، وكان لفراسة المعلم الأثر في احتضان هذه الظاهرة الفريدة، ومنها إلى ميدان السياسة، كاتم أسراره ورسوله، الى رجالات ذاك الزمن، ليتحول إلى الحلقة الشفافة بينهم وبين المعلم، في السلطة وخارجها، ثم مع الرئيس فؤاد شهاب، امتداداً الى الرئيس شارل حلو، يقول اللواء سامي الخطيب إن الشيخ عارف كان بالواقع أحد أعمدة هيكل الجمهورية في عهدي الرئيسين شهاب وحلو.

مع الرئيس شهاب، كان صفحة من صفحات عهده الناصعة، احتضنه الرئيس، فكان رسوله الأمين في الملمات والصعاب، والوجيه، الذي تحول بكرمه وكفه الناصع وأمانته، إلى محطة تلاقٍ وحوار بين رجالات ذاك الزمن، يلتقون بارتياح إلى مائدته، يلبّون دعواته، فإذا السياسة في أرقى تجلياتها، وأشير في هذه الذكرى الى بعض هذه الدعوات، والصور معبرة، إلى مائدة الشيخ عارف وجميعهم في ذمة الله، وحبة العقد بينهم الذي قلما يتكرر، عميد النهار الصديق الدائم، محطته اليومية، حيث عمالقة الصحافة.

كانت "النهار" آنذاك مع عميدها الكبير المحطة الأبرز في السياسة، حيث كان في لبنان جمهوريتان، الرسمية الدستورية، والجمهورية الرديفة الثانية المتوقدة والمتألقة في مكاتب عميد "النهار"، خريج الجامعات الثلاث، الأولى والده المؤسس جبران تويني، والثانية هارفرد، والثالثة جامعة الحياة المثيرة، الني خبِرَها وخبرته، وأعطاها من ذاته كل ما يحمله عاشق لها، جهاداً آمالاً، وآلاماً ودماً. وخير وصف لهذا الإنسان الكبير هو رسم الفنان الخالد بيار صادق، بأنّه أيقونة إغريقية، حيث الأرثوذكسية العريقة، تجسد عمالقتها صوراً تحاكي في عراقتها الأيقونة، سر القداسة. وهل القداسة في المعنى الأرفع سوى الفناء في رحاب الحقيقة، في جوهر الانسان، يفتش العارف فيه عن دوره الذي يرسم قدره، أو القدر الذي يعيش دوره.

الى جانب العميد الخالد، أتراب له في السياسة، قدر لبنان أن جمعهم في عصر واحد، العميد ريمون إده، الرئيس رشيد كرامي، والمعلم كمال جنبلاط. هؤلاء الثلاثة في الصورة، الى جانب النائب بيار حلو والصحافي مارك رياشي واللواء شوكت شقير. هذه الصورة أخذت عام 1973، بعيد انتخاب الرئيس سليمان فرنجية، نتذكرها فلعل جيل اليوم، في حراكه وثورته ومأساته، يقارن في الرجال، في القيادات، تاريخاً وواقعاً. والصورة التي تجمعهم كأنها الأيقونة.

العميد ريمون إده، ذاك الزعيم المتمرد على ذاته، المشبع بقيم الديموقراطية، ومواقف الرجولة والترفع، والصوت المدوي حرية حتى يومه الأخير. هو صوت الجمهورية، ضميرها، الوارث فيها لو شاء، والمترفع بإرادته وقراره والتزامه، يختار منفاه الباريسي، يشعل في جناحه سراجاً من زيت، وجدانه وتاريخه ومعاناته ونداءاته. انه لن يصل إلى حيث يجب أن يكون غير أنّه في حشرجات أيامه الأخيرة، كان يرسم في وعيه ولاوعيه صورة الوطن المخطوف الذي أحبه حتى الرمق الأخير.

أما الرئيس رشيد كرامي، هذا الذي انطلق من بيت الافتاء، الرّصانة والإخلاص، والإسلام الحنيف، اصالة حق وعدالة، ونزاهة، وسياسة راقية مترفعة، انه الأب عبد الحميد كرامي، أحد رجالات الاستقلال، ورفيق معتقلي راشيا، الى رئاسة الحكومة يجمع فيها قيم الدين وموجبات السياسة.

Volume 0%

الرشيد ابن هذا البيت، ثلاثون عاماً من المسؤولية حتى الاغتيال، الاستشهاد، ليسطّر في السياسة أشرف الصفحات.

ونعود إلى المعلم كمال جنبلاط، الرجل الغارق في التاريخ، الى الجدران التاريخية لقصر يحكي كل مدماك فيه قصة وجود، واجه الأعاصير والمؤامرات والفتن، رجال قدرهم قدر مواطنيهم وأهليهم، والقافلة كبيرة، ترسو مع الكمال، يتلقف ريادتها، يحولها الى حيث العصر، في استشراف الغد الآتي. فإذا بفكره النهضوي التقدمي الواقعي الانساني، الذي وبشغف يتلقف الفكر الغربي المتحرر، إلى قداسة البابا يوحنا الثالث والعشرين، وتيار دي شاردان، الى الشرق مع المهاتما غاندي وما في الهند من قداسة وقيم روحية، الى التيبت والهونزا، الى الفلسفة اليونانية ومتصوفي الإسلام، وخلاصة هذه كانت الحزب التقدمي الاشتراكي.

ما الذي دعاني الى هذا المقال؟

في الحقيقة، مشكلة جيلنا السبعيني، أنه عاصر هؤلاء الرجال القادة الكبار، وما كان يجمعهم هو القيم والرقي الفكري، منائر ولاء لوطن أحبوه، بكل ما في المحبة من تجرد عن الأنا والشخصانية والتحجر والطمع. ورغم حنيننا الى تلك الأيام وقد تذوقنا بعض حلاوتها، كان النضال وكان الصراع الإقليمي والتحديات المحيطة بنا والاقليمية، انما كان في لبنان قيادة، لها من يواليها ويعارضها، انما برجولة وترفع، ولم تكن موجة الفساد قد عبثت بمفاصل الحياة الرسمية والخاصة كما اليوم، وكان للكلمة والموقف الفعل الذي يضاهي في الأثر العنف والصفاقة.

ترى هل يعلم اللبنانيون أن الشخصيات التي نتأمل صورهم اليوم، قد أعطوا لبنان حتى الشهادة، جميعهم شهداء، الرئيس كرامي، المعلم كمال جنبلاط، شهيدا الغدر، العميد ريمون إده وغسان تويني، شهيدا الحق والقيم والمحبة، قَدَّما أغلى ما يملكان لهذه القيم. غسان تويني، تجرع من كأس الشهادة حتى الثمالة، وكأس الصبر، ولم يتردد. ولم يهُن ذراعه عن المشعل المرتفع كالطود إنه نهار الحرية، لن تغيب شمسه، وستبقى.

والشيخ عارف يحيى، رفيق الثلاثة الكبار، قبيل وفاته توجه الى فندقه - المنتدى - بيروت انترناسيونال، الذي احتض ن لسنوات أرباب الكلمة والموقف والسياسة والمقاومة. ليرى أنّ قذائف الاجتياح الاسرائيلي تدمر له جنى العمر. إنها الصدمة المزدوجة فندق ذكريات الجهاد، وواقع الغدر.

أسبوعا ويطفَئُ سراج جسدِه، وتُطوى صفحة نضال، وتغيب شمسُ هذه الشخصيات، التي من حظها أنها لم تتوقع هذه النهاية المأساة للسياسة والقيم في لبنان. إنها المقارنة المستحيلة.